تعامل النبي ﷺ مع المنافقين

لقد كان نبيّنا محمدٌ ﷺ يعاملُ كلَّ فئةٍ من الناس حسب ما يقتضيه وضعهم وحالهم، وإن من الفئات التي ينبغي لنا أن نقفَ عندها؛ لننظرَ كيف كان النبيُّ ﷺ يعاملهم: فئة «المنافقين»، وهم الذين أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر.

ومن أبرز صفاتهم:

- ادّعاء الإيمان كذباً:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

- الخداع:

قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

- الإفساد في الأرض:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦].

- التثاقل عن العبادة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

- **السخرية من المؤمنين:**

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

- **معاداة المؤمنين وبغضهم والتآمر ضدهم:**

قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

- **موالاة الكفار، وتقوية عزائمهم:**

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

- **التحاكم إلى الطاغوت، وترك الشريعة:**

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٧-٥٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

- **الاستكبار عن الاستغفار والتوبة:**

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٥].

- **محبة انتشار الفاحشة في المؤمنين:**

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

- **محاربة المؤمنين اقتصاديّاً:**

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

- **الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف:**

قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

إن المنافقين من أخطر الفئات التي تهدّدُ الأمة؛ نظراً لاختلاطهم بالمسلمين ومعرفتهم بمكامنِ القوّة والضعفِ فيهم، والنّفاقُ كما قال ابن القيم: «هو الدّاءُ العضالُ الباطنُ»[1].

وقد يتصوّرُ البعض أن هؤلاء المنافقين كانوا في الزّمن الأول ثم انقرضوا، وهذا تصوّرٌ

(١) مدارج السالكين [١/ ٣٥٤].

باطـل، بل هم باقون في كل زمان؛ كما قال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة: «والمنافقونَ ما زالوا، ولا يزالونَ إلى يومِ القيامةِ»[١].

والنفاق لم يعرفه العرب والمسـلمون إلا بعـد الهجرة النبويّة إلى المدينة، فلم يكن معروفاً بمكة، وذلك لأن المسلمين في مكة لم يكن لهم شوكةٌ، بل كانت الشوكةُ والقوة للمشركين، فلم يكن هناك داعٍ لأن يخفيَ المشركُ عقيدته.

ظهر النفاقُ في المدينة بعد أن ازدادت قوة المسلمين، وقد أظهر المنافقون الإسلام، وأبطنوا الكفر؛ جبناً وخداعاً، وكان يرأسهم عبدُ الله بن أبي ابن سلول[٢] الذي كان ينتظر الزعامة على الأوس والخزرج قبل الهجرة النبوية، فلما خسر هذا الأمر دخل في الإسلام نفاقاً.

وظل ابن سلول يظهرُ الإسلام، ويبطنُ الحقدَ، والشرَّ والكيدَ، ويتحيّن الفرص للإيقاع بالمسلمين، ولم يألُ جهداً في حبكِ المؤامراتِ ضدَّ المسلمين، إلى أن هلك.

ومع ذلك فقد كان النبي ﷺ يترفّق به، ويعامله بالصفحِ والحلم؛ رغبةً في تأليفِ قلبه.

وأول موقـفٍ برزت فيه عداوةُ عبد الله بن أبي ابن سـلول للإسـلام كان قبل غزوة بدر، قبل أن يظهرَ إسلامه.

عـن أسـامةَ بنَ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النّبـيَّ ﷺ ركبَ حماراً عليهِ إكافٌ، تحتـهُ قطيفةٌ فدكيّةٌ[٣]، وأردفَ وراءهُ أسامةَ، وهوَ يعودُ سعدَ بنَ عبادةَ في بني الحارثِ بنِ الخزرجِ، وذاكَ قبلَ وقعةِ بدرٍ.

حتّـى مـرَّ بمجلسٍ فيهِ أخـلاطٌ منَ المسـلمينَ والمشركينَ عبـدةِ الأوثانِ واليهـودِ، فيهمْ عبدُ الله بنُ أبيٍّ، وذلكَ قبلَ أنْ يسلمَ عبدُ اللهِ[٤]، وفي المجلسِ عبدُ الله بنُ رواحةَ.

---

(١) مجموع الفتاوى [٧/ ٢١٢].

(٢) أبيٌّ أبوه، وسلول أمّه، فهو منسوب إلى أبيه وأمه معاً.

(٣) الإكاف ما يوضع على الدّابّة كالبرذعةِ، وقوله «فدكيّة» نسبة إلى فدك القرية المشهورة، كأنها صنعتْ فيها، والحاصل أنَّ الإكاف يلي الحمار والقطيفة فوق الإكاف، والرّاكب فوق القطيفة. فتح الباري [١٠/ ١٢٢].

(٤) أي: قبل أنْ يظهر الإسلام.

فلمّا غشيتِ المجلسَ عجاجةُ الدّابّةِ[١]، خَمّرَ عبدُ الله بنُ أبيٍّ أنفهُ بردائهِ، ثمَّ قالَ: لا تغبرّوا علينا.

فسلّمَ عليهمْ النّبيُّ ﷺ[٢]، ثمَّ وقفَ، فنزلَ فدعاهمْ إلى الله، وقرأَ عليهمْ القرآنَ.

فقالَ عبدُ الله بنُ أبيٍّ: أيّها المرءُ، لا أحسنَ منْ هذا إنْ كانَ ما تقولُ حقّاً، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجعْ إلى رحلكَ، فمنْ جاءكَ منّا، فاقصصْ عليهِ.

فقالَ عبدُ الله بنُ رواحةَ: اغشنا في مجالسنا، فإنّا نحبُّ ذلكَ.

فاستبَّ المسلمونَ والمشركونَ واليهودُ حتّى همّوا أنْ يتواثبوا.

وفي رواية: «فلمّا أتاهُ النّبيُّ ﷺ قالَ: إليكَ عنّي، والله لقدْ آذاني نتنُ حمارِكَ.

فقالَ رجلٌ منَ الأنصارِ: والله لحمارُ رسولِ الله ﷺ أطيبُ ريحاً منكَ.

فغضبَ لعبدِ الله رجلٌ منْ قومهِ فشتمهُ، فغضبَ لكلِّ واحدٍ منهما أصحابهُ، فكانَ بينهما ضربٌ بالجريدِ والأيدي والنّعالِ.

فلمْ يزلْ النّبيُّ ﷺ يخفّضهمْ[٣]»[٤].

ثمَّ ركبَ رسول الله ﷺ دابّتهُ حتّى دخلَ على سعدِ بنِ عبادةَ فقالَ: «**أيْ: سعدُ، ألمْ تسمعْ إلى ما قالَ أبو حبابٍ؟**[٥]، **يريدُ عبدَ الله بنَ أبيٍّ، قالَ: كذا وكذا**».

فقالَ سعد: اعفُ عنهُ يا رسولَ الله واصفحْ، فوالله لقدْ أعطاكَ الله الّذي أعطاكَ، ولقدْ اصطلحَ أهلُ هذهِ البحيرةِ[٦] أنْ يتوّجوهُ فيعصّبوهُ بالعصابةِ[٧].

---

(١) هوَ ما ارتفعَ منْ غبار حوافرها.

(٢) فيه: جواز الابتداء بالسّلامِ على قوم فيهمْ مسلمونَ وكفّار. شرح النووي على صحيح مسلم [١٢/١٥٨]

(٣) أيْ: يسكّنهمْ ويسهّل الأمر بينهمْ.

(٤) رواه البخاري [٢٦٩٩]، ومسلم [١٧٩٩] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) كنّاهُ النّبيّ ﷺ في تلكَ الحالة لكونهِ كانَ مشهوراً بها، أوْ لمصلحةِ التّآلف.

(٦) هذا اللّفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد بهِ هنا المدينة النّبويّة.

(٧) معناهُ: اتّفقوا على أنْ يجعلوهُ ملكهمْ، وكانَ منْ عادتهمْ إذا ملّكوا إنساناً أنْ يتوّجوهُ ويعصبوهُ.

فلمّا ردَّ الله ذلكَ بالحقِّ الّذي أعطاكهُ شرقَ بذلكَ[١]، فذلكَ فعلَ بهِ ما رأيتَ.

فعفا عنهُ النّبيُّ ﷺ، وكانَ النّبيُّ ﷺ وأصحابهُ يعفونَ عنِ المشركينَ وأهلِ الكتابِ كما أمرهمْ الله ويصبرونَ على الأذى، قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وكانَ النّبيُّ ﷺ يتأوّلُ العفوَ ما أمرهُ الله بهِ، حتّى أذنَ الله فيهمْ[٢].

وعفوه ﷺ عنْ كثير منَ المشركينَ واليهود بالمنِّ والفداء وصفحه عنِ المنافقينَ مشهور في الأحاديث والسّير.

فقد ظهر في هذا الحديث حلمُ النبيِّ ﷺ؛ فلم يغضب عندما صدرَ الأذى من زعيمِ المنافقين بقوله لرسول الله ﷺ: «لا تغبّروا علينا» وخمّر أنفه بردائه، وأساءَ الأدب مع النبي ﷺ حيث ناداه بنداء الاستخفاف بقوله: «أيها المرءُ».

وقابل النبيُّ ﷺ هذا الكلام القبيح بالحلَم، فلم يغضبْ، وعفا عنه.

قال النووي: «وفي هذا الحديث: بيان ما كانَ عليهِ النّبيّ ﷺ منَ الحلم، والصّفح، والصّبر على الأذى في الله تعالى، ودوام الدّعاء إلى الله تعالى، وتألّف قلوبهمْ»[٣].

إن النبي ﷺ كان مأموراً من ربه في بداية الدعوة بالعفو والصفح ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وكانت التوجيهات في البداية بعدم المواجهة بالسلاح حتى يقوى المسلمون ويستطيعوا المواجهة.

---

(١) أيْ: غصَّ، وحسدَ النّبيّ ﷺ.

(٢) رواه البخاري [٦٢٥٤] ومسلم [١٧٩٨]. وقوله: «حتّى أذنَ اللهُ فيهمْ»: أيْ: في قتالهمْ.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم [١٢/ ١٥٩].

ولما قويتْ شوكة المسلمين بعد غزوة بدر، دخل ابن سلول وكثير من المشركين في الإسلام نفاقاً.

عن أسامةَ بنَ زيدٍ رضي الله عنهما قال: لمّا غزا رسولُ الله ﷺ بدراً، فقتلَ الله بها منْ قتلَ منْ صناديدِ الكفّارِ[١] وسادةِ قريشٍ، فقفلَ رسولُ الله ﷺ وأصحابهُ منصورينَ غانمينَ معهمْ أسارى منْ صناديدِ الكفّارِ، وسادةِ قريشٍ- قالَ ابنُ أبيٍّ ابنُ سلولَ ومنْ معهُ منَ المشركينَ، وعبدةِ الأوثانِ: هذا أمرٌ قدْ توجّهَ[٢]، فبايعوا الرّسولَ ﷺ على الإسلامِ فأسلموا[٣].

وهذا لخوفهم وجزعهم.

ودلَّ هذا الحديث على أن المنافقين يختفون بشرّهم عند ظهورِ قوة المسلمين، ويظهرون نفاقهم وشرّهم وأذاهم عند ضعفِ المسلمين.

ومع إعلانهم الدخول في الإسلام، إلا أن عداوتهم للإسلام، وإضمارهم الشرَّ للمسلمين لم يتغيّرْ، فما زالوا يتربّصون بالمسلمين الدوائرَ، وينتهزون الفرص المواتية للانقضاض عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المهاجرونَ لمْ يكنْ فيهمْ منافقٌ؛ وإنّما كانَ النّفاقُ في بعضِ منْ دخلَ منَ الأنصارِ؛ وذلكَ أنَّ الأنصارَ همْ أهلُ المدينةِ؛ فلمّا أسلمَ أشرافهمْ وجمهورهمُ احتاجَ الباقونَ أنْ يظهروا الإسلامَ نفاقاً؛ لعزِّ الإسلامِ، وظهورهِ في قومهمْ.

وأمّا أهلُ مكّةَ فكانَ أشرافهمْ وجمهورهمْ كفّاراً، فلمْ يكنْ يظهرُ الإيمانَ إلّا منْ هوَ مؤمنٌ ظاهراً وباطناً؛ فإنّهُ كانَ منْ أظهرَ الإسلامَ يؤذى ويهجرُ؛ وإنّما المنافقُ يظهرُ الإسلامَ لمصلحةِ دنياهُ، وكانَ منْ أظهرَ الإسلامَ بمكّةَ يتأذّى في دنياهُ»[٤].

---

(١) وهمْ أشرافهم، وعظماؤهم ورؤساؤهم، الواحدُ صنديد، وكلُ عظيمٍ غالبٍ صنديد. النهاية [٣/ ٥٥]

(٢) أيْ: ظهرَ وجهه، أو قد استمر فلا طمع في إزالته وتغييره.

(٣) رواه البخاري [٤٥٦٦].

(٤) الفتاوى الكبرى [٣/ ٤٥٠].

فكان عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين يحيكون المؤامرات مع اليهود ضد المسلمين.

ويوضّحُ ذلك انحيازهم إلى جانب يهود بني قينقاع، الذين نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ بأن لا يعتدي أحد الجانبين على الآخر.

عنْ عبد الله بنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: لمّا أصابَ رسولُ الله ﷺ قريشاً يومَ بدرٍ، وقدمَ المدينةَ؛ جمعَ اليهودَ في سوقِ بني قينقاعَ، فقالَ: «**يا معشرَ يهودَ، أسلموا قبلَ أنْ يصيبكمْ مثلُ ما أصابَ قريشاً**»(١).

قالوا: يا محمّدُ لا يغرّنّكَ منْ نفسكَ أنّكَ قتلتَ نفراً منْ قريشٍ كانوا أغماراً(٢) لا يعرفونَ القتالَ، إنّكَ لوْ قاتلتنا لعرفتَ أنّا نحنُ النّاسُ، وأنّكَ لمْ تلقَ مثلنا.

فأنزلَ الله عَزَّوَجَلَّ في ذلكَ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢](٣).

وذكر ابن هشام عن أبي عون محمد بن عبد الله الثقفي أنَّ امرأةً منَ العربِ قدمتْ بجلبٍ لها، فباعتهُ بسوقِ بني قينقاعَ، وجلستْ إلى صائغٍ بها، فجعلوا يريدونها على كشفِ وجهها، فأبتْ، فعمدَ الصّائغُ إلى طرفِ ثوبها، فعقدهُ إلى ظهرها، فلمّا قامتْ انكشفتْ سوأتها، فضحكوا بها، فصاحتْ.

فوثبَ رجلٌ منَ المسلمينَ على الصّائغِ، فقتلهُ، وكانَ يهوديّاً، وشدّتِ اليهودُ على المسلمِ، فقتلوهُ.

فاستصرخَ أهلُ المسلمِ المسلمينَ على اليهودِ، فغضبَ المسلمونَ، فوقعَ الشّرُّ بينهمْ وبينَ بني قينقاعَ(٤).

---

(١) وفي رواية: فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم. السيرة النبوية لابن إسحاق [١/ ٣١٣].

(٢) أغمار: جمع غمر وهو الجاهل الغرّ الّذي لمْ يجرّب الأمور. النهاية [٣/ ٣٨٥]

(٣) رواه أبو داود [٣٠٠١]، وحسّنه ابن حجر في الفتح [٧/ ٣٣٢]، وصححه أحمد شاكر في عمدة التفسير وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [٥٢٤].

(٤) السيرة النبوية [٢/ ٤٨] لابن هشام.

وقد كان صنيعهم هذا مستوجباً ما عاملهم به رسول الله ﷺ من ضربِ الحصار، وشدِّ الخناق عليهم، حتى نزلوا على حكمه.

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: «فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقامَ إليهِ عبدُ الله بنُ أبيّ ابنُ سلولَ، حينَ أمكنهُ الله منهمْ، فقالَ: يا محمّدُ أحسنْ في مواليّ، وكانوا حلفاءَ الخزرجِ.

فأبطأَ عليهِ رسولُ الله ﷺ.

فقالَ: يا محمّدُ أحسنْ في مواليّ.

فأعرضَ عنهُ.

فأدخلَ يدهُ في جيبِ درعِ رسولِ الله.

فقالَ لهُ رسولُ الله ﷺ أرسلني، وغضبَ رسولُ الله ﷺ حتّى رأوا لوجههِ ظللاً[1].

ثمّ قالَ: «**ويحك أرسلني**».

قالَ: لا والله، لا أرسلك حتّى تحسنَ في مواليّ، أربعمائةِ حاسرٍ[2]، وثلاثمائةِ دارعٍ[3]، قدْ منعوني منَ الأحمرِ والأسودِ، تحصدهمْ في غداةٍ واحدةٍ؟! إنّي والله امرؤ أخشى الدّوائرَ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**همْ لك**»[4].

وكان عبد الله بن أبيّ لا يزال صاحبَ شأنٍ في قومه؛ فقبل رسول الله ﷺ شفاعته في بني قينقاع على أن يجلوا عن المدينة، وأن يأخذوا معهم أموالهم عدا السلاح.

---

(١) أي: تغيّر وجهه للسواد من شدة غضبه ﷺ.

(٢) وهو الذى لا درع، ولا مغفر عليه.

(٣) الذي عليه درع.

(٤) السيرة النبوية [٢/ ٤٨] لابن هشام. وإسناده حسن، لكنه مرسل.

ولمّا خرج النبي ﷺ إلى غزوة أحد تخاذل المنافقون عن القتال معه، فرجعوا بثلثِ الجيش، ومع ذلك لم يعاقبهم النبيُّ ﷺ.

عنْ زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: لمّا خرجَ النّبيُّ ﷺ إلى أحدٍ، رجعَ ناسٌ ممّنْ خرجَ معهُ، وكانَ أصحابُ النّبيِّ ﷺ فرقتينِ: فرقةً تقولُ نقاتلهمْ، وفرقةً تقولُ: لا نقاتلهمْ.

فنزلتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨][(١)].

«رجعَ ناس ممّنْ خرجَ معهُ» يعني: عبد الله بن أبيّ وأصحابه، وقدْ وردَ ذلكَ صريحاً في روايةِ موسى بن عقبة، وأنَّ عبد الله بن أبيّ كانَ وافقَ رأيه رأي النّبيّ ﷺ على الإقامة بالمدينةِ، فلمّا أشارَ غيره بالخروجِ، وأجابهمْ النّبيّ ﷺ فخرجَ، قالَ عبد الله بن أبيّ لأصحابِهِ: أطاعهمْ وعصاني، علامَ نقتلُ أنفسنا؟ فرجعَ بثلثِ النّاسِ.

قالَ ابن إسحاق في روايته: فاتّبعهمْ عبد الله بن عمرو بن حرام وهوَ والد جابر وكانَ خزرجيّاً كعبدِ الله بن أبيّ، فناشدهمْ أنْ يرجعوا فأبوا، فقالَ: أبعدكمُ الله أعداءَ الله، فسيغني الله عنكمْ نبيّهُ[(٢)].

«وكانَ أصحاب رسول الله ﷺ فرقتينِ» أيْ: في الحكم فيمنِ انصرفَ معَ عبدِ الله بن أبيّ[(٣)].

ومعنى الآيةِ: فما لكمْ يا معشرَ المؤمنينَ في المنافقينَ فئتينِ أيْ: صرتمْ في أمرهمْ فرقتينِ، فرقةً تذبُّ عنهمْ وفرقةً تباينهمْ وتعاديهمْ. فنهى الله الفرقةَ الّذينَ يذبّونَ عنهمْ، وأمرَ المؤمنينَ جميعاً أنْ يكونوا على منهاجٍ واحدٍ في التّباينِ لهمْ والتّبرّؤ منهمْ.

﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾: يعني: نكسهمْ في كفرهمْ، وارتدادهمْ، وردّهمْ إلى أحكامِ الكفّارِ بما كسبوا: أيْ بسببِ ما اكتسبوا منْ أعمالهمُ الخبيثةِ[(٤)].

---

(١) رواه البخاري [٤٠٥٠] ومسلم [٢٧٧٦].

(٢) السيرة النبوية [٢/ ٦٤] لابن هشام، فتح الباري [٧/ ٣٥٦].

(٣) فتح الباري [٧/ ٣٥٦].

(٤) تفسير الخازن [١/ ٤٠٧]، تحفة الأحوذي [٨/ ٣٠٤].

فصحَّ أن المنافقين خذلوا المسلمين في أحرج المواقف، بتأثيرهم على الضّعفاء، وسحبهم ثلثَ جيش المسلمين، الذي خرج للتصدّي للمشركين، واحتجوا لأنفسهم بأوهى الأسباب، وهو زعمهم أن القتال لن يقع، مع أنهم كانوا يعلمون أن القتال حاصلٌ لا محالة.

وإنما الذي صدّهم عن الانضمام إلى كتائب المسلمين هو كفرهم ونفاقهم؛ كما أوضح الله ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ومع ما صدر منهم فلم يعاقبهم النبيُّ ﷺ على هذا الجرم العظيم الذي فيه تخذيلٌ للمسلمين.

وترك النبيُّ ﷺ قتلهم لأجل مصالح كثيرة في الإسلام:

فرسول الله ﷺ لم يقتل أحداً من المنافقين ممن يخالط المجتمع تحصيلاً لمصالح الدعوة، ومنها: سدُّ ذرائع النفور عن دعوة الإسلام.

ويدلُّ على ذلك حديث جابرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنهما قالَ: كنّا في غزاةٍ[١]، فكسعَ[٢] رجلٌ منَ المهاجرينَ رجلاً منَ الأنصارِ. فقالَ الأنصاريُّ: يا للأنصارِ.

وقالَ المهاجريُّ: يا للمهاجرينَ.[٣]

فسمعَ ذلكَ رسولُ الله ﷺ، فقالَ: «**ما بالُ دعوى الجاهليّةِ؟**».

قالوا: يا رسولَ اللهِ، كسعَ رجلٌ منَ المهاجرينَ رجلاً منَ الأنصارِ.

فقالَ: «**دعوها فإنّها منتنةٌ**».

---

(١) هي غزوة بني المصطلق.

(٢) الكسع: ضرب الدّبر باليدِ أوْ بالرّجلِ.

(٣) بالرغم أن اللفظ المستخدم لفظ إسلامي: «المهاجرون والأنصار»، لكن لما استخدم استخداماً خاطئاً أنكر النبي ﷺ ذلك.

فسمعَ بذلكَ عبدُ الله بنُ أبيٍّ فقالَ: فعلوها!!، أما والله لئنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ[١]!

فبلغَ النّبيَّ ﷺ.

فقامَ عمرُ فقالَ: يا رسولَ الله دعني أضربْ عنقَ هذا المنافقِ.

فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**دعهُ، لا يتحدّثُ النّاسُ أنَّ محمّداً يقتلُ أصحابهُ**»[٢].

زادَ ابن إسحاق: «فقالَ: لا، ولكنْ أذّنْ بالرّحيلِ، فراحَ في ساعة ما كانَ يرحل فيها[٣].

فلقيهُ أسيد بن حضير فسألهُ عنْ ذلكَ فأخبرهُ، فقالَ: فأنتَ يا رسول الله الأعزُّ وهوَ الأذلُّ».

وبلغَ عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ ما كانَ منْ أمر أبيهِ، فأتى النّبيّ ﷺ فقال: بلغني أنّك تريد قتل أبي فيما بلغك عنهُ، فإنْ كنت فاعلاً، فمرني بهِ فأنا أحمل إليك رأسه.

فقالَ: «**بلْ نترفّق بهِ ونحسن صحبته ما بقيَ معنا**»[٤].

وفي روايةٍ: فقالَ لهُ ابنه عبد الله: والله لا تنقلبُ إلى المدينة حتّى تقرَّ أنّكَ الذّليلُ ورسولُ الله ﷺ العزيزُ، ففعلَ[٥].

---

(١) في رواية عبدِ الرّزّاقِ عنْ معمرٍ عنِ قتادةَ مرسلًا: فانكفأَ كلّ منافق إلى عبد الله بن أبيٍّ فقالوا: كنت ترجى وتدفع، فصرت لا تضرُّ ولا تنفع، فقالَ: لئنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلّ. وسندها مرسل = = جيد؛ كما قال ابن حجر في الفتح [٨/ ٦٤٩].

وفي رواية ابن إسحاق: فقالَ عبد الله بن أبيٍّ: أقدْ فعلوها؟ نافرونا، وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذهِ إلّا كما قالَ القائل: سمّنْ كلبك يأكلك. السيرة النبوية [٤/ ٣٥٩] لابن هشام. يقصد أننا آويناهم وأطعمناهم، فلما شبعوا وعزّوا كاثرونا، ونافسونا.

(٢) رواه البخاري [٣٥١٨] واللفظ له، ومسلم [٢٥٨٤].

(٣) والحكمة ظاهرة من أمره ﷺ بالرحيل في وقت غير معتاد، وهي: أن ترك مثل هذا الخبر ينتشر في الجيش يسبّبُ بلبلةً في الأفكار، ويثير القيل والقال مما يصرف أذهان الجند إلى مهاترات كلامية، لا تحمد عقباها. فكانت مسيرة الجيش المتصلة ليلاً ونهاراً مما أجهدهم، حتى وقعوا نياماً، فمسح النومُ العميقُ بعد النّصبِ الشديد آثار الفتنة. مرويات غزوة بني المصطلق [١/ ١٩٠].

(٤) السيرة النبوية [٢/ ٢٩١] لابن هشام.

(٥) رواه الترمذي [١٥٨٢]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٣٣١٥].

أيْ: فأقرَّ عبدُ الله بنُ أبيٍّ بأنّهُ الذّليلُ ورسولَ الله ﷺ العزيزُ.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: فيهِ: ما كانَ عليهِ ﷺ منَ الحلم.

وفيهِ: ترك بعض الأمور المختارة، والصّبر على بعض المفاسد خوفاً منْ أنْ تترتّب على ذلكَ مفسدة أعظم منهُ.

وكانَ ﷺ يتألّف النّاس، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقينَ، وغيرهمْ؛ لتقوى شوكة المسلمينَ، وتتمّ دعوة الإسلام، ويتمكّن الإيمان منْ قلوب المؤلّفة، ويرغب غيرهمْ في الإسلام، وكانَ يعطيهمُ الأموال الجزيلة لذلكَ.

ولمْ يقتل المنافقينَ لهذا المعنى، ولإظهارهمُ الإسلام، وقدْ أمرَ بالحكمِ بالظّاهرِ، والله يتولّى السّرائر، ولأنّهمْ كانوا معدودينَ في أصحابه ﷺ، ويجاهدونَ معهُ إمّا حميّةً، وإمّا لطلبِ دنيا، أوْ عصبيّة لمنْ معهُ منْ عشائرهمْ»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «**الثّالثُ** – أي: من الشواهد على قاعدة سد الذرائع: أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يكفُّ عنْ قتلِ المنافقينَ معَ كونهِ مصلحةً؛ لئلّا يكونَ ذريعةً إلى قولِ النّاسِ أنَّ محمّداً ﷺ يقتلُ أصحابهُ؛ لأنَّ هذا القولَ يوجبُ النّفورَ عنِ الإسلامِ ممّنْ دخلَ فيهِ، وممّنْ لمْ يدخلْ فيهِ، وهذا النّفورُ حرامٌ»[2].

فكان الأصل في تعامله ﷺ مع المنافقين: أن يجري ظاهر حكم الإسلام عليهم ما داموا مظهرينَ للإسلام.

فعاملهم معاملة المسلمين في أحكام الدنيا، فلم يفرّق بينهم وبين غيرهم من المسلمين في الأحكام الظاهرة.

قال الشافعي: «من أظهر الإيمان بعد الكفر له حكم المسلمين من الموارثة والمناكحة وغير ذلك من أحكام المسلمين»[3].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم [١٦/ ١٣٩].

(٢) إقامة الدليل على إبطال التحليل [٣/ ٤٧١].

(٣) الأم [٦/ ١٦٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإيمانَ الظّاهرَ الّذي تجري عليهِ الأحكامُ في الدّنيا لا يستلزمُ الإيمانَ في الباطنِ الّذي يكونُ صاحبهُ منْ أهلِ السّعادةِ في الآخرةِ؛ فإنَّ المنافقينَ الّذينَ قالوا آمنّا بالله وباليومِ الآخرِ وما همْ بمؤمنينَ همْ في الظّاهرِ مؤمنونَ يصلّونَ معَ النّاسِ ويصومونَ ويحجّونَ ويغزونَ، والمسلمونَ يناكحونهمْ ويوارثونهم كما كانَ المنافقونَ على عهدِ رسولِ الله ﷺ.

ولمْ يحكمْ النّبيُّ ﷺ في المنافقينَ بحكمِ الكفّارِ المظهرينَ للكفرِ لا في مناكحتهمْ، ولا موارثتهم، ولا نحوِ ذلكَ.

بلْ لمّا ماتَ عبدُ الله بنُ أبي ابنُ سلول -وهوَ منْ أشهرِ النّاسِ بالنّفاقِ- ورثهُ ابنهُ عبدُ الله، وهوَ منْ خيارِ المؤمنينَ، وكذلكَ سائرُ منْ كانَ يموتُ منهمْ يرثهُ ورثتهُ المؤمنونَ.

وإذا ماتَ لأحدهمْ وارثٌ ورثوهُ معَ المسلمينَ... وإنْ علمَ في الباطنِ أنّهُ منافقٌ... وإنْ كانوا في الآخرةِ في الدّركِ الأسفلِ منْ النّارِ؛ بلْ كانوا يورثونَ ويرثونَ؛ وكذلكَ كانوا في الحقوقِ والحدودِ كسائرِ المسلمينَ»[1].

فهؤلاء المنافقون يعاملون معاملة المسلمين ما لم يظهر منهم ما يدلُّ على كفرهم ونفاقهم صراحةً، فإن ظهر منهم ذلك، وثبت بالأدلة الواضحة، فيعاملون معاملة الكفار، ويقام عليهم حكم الردة.

ولذلك من الخطأ الواضح ما يقرّره البعض من ترك الحرّية لكل منافق فاسدٍ، وشيطان ماردٍ، بأن يقول ما شاءَ، بحجّة أن النبيَّ ﷺ كفَّ عن المنافقين!

وخفي على هؤلاء أن النبيَّ ﷺ كفَّ عن المنافقين في زمانه؛ لأنهم كانوا يكتمون نفاقهم، وما ظهر منهم من فلتات اللسان لم تقمْ عليهم فيه البيّنةُ الواضحةُ، وكانوا ينكرونه ويتنصّلون منه بالأيمانِ الكاذبةِ، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ [المنافقون: ٢]، أي: وقاية يتقون بها القتل، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ٧٤]. أو لعدم إمكان إقامتها إلا مع تنفيرِ أقوام عن الدخولِ في الإسلام وارتدادِ آخرين عنه.

---

(١) مجموع الفتاوى [٧/ ٢١٠] باختصار.

لقد كان النبيُّ ﷺ يقبل اعتذاراتهم وأيمانهم تأليفاً لهم:

قال زيد رضي الله عنه: خرجنا معَ رسولِ الله ﷺ في سفرٍ أصابَ النّاسَ فيهِ شدّةٌ. فسمعتُ عبدَ الله بنَ أبيٍّ يقولُ: لا تنفقوا على منْ عندَ رسولِ الله حتّى ينفضّوا منْ حولهِ، ولئنْ رجعنا منْ عندهِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ.

قال زيد بن أرقم: فذكرتُ ذلكَ لعمّي[1]، فذكرهُ للنّبيِّ ﷺ، فدعاني، فحدّثتهُ.

فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى عبدِ الله بنِ أبيٍّ وأصحابهِ، فحلفوا ما قالوا. فكذّبني رسولُ الله ﷺ، وصدّقهُ[2]، فأصابني همٌّ لمْ يصبني مثلهُ قطُّ، فجلستُ في البيتِ[3].

فقالَ لي عمّي: ما أردتَ إلى أنْ كذّبكَ رسولُ الله ﷺ، ومقتكَ؟!

فوقعَ في نفسي ممّا قالوهُ شدّةٌ حتّى أنزلَ الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] إلى آخر السورة، وفيها: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧-٨].

فأرسلَ إليَّ رسولُ الله ﷺ فقرأها عليَّ، ثمَّ قالَ: إنَّ اللهَ قدْ صدّقكَ يا زيدُ[4].

---

(١) المراد بعمّهِ سعد بن عبادةَ وليسَ عمّه حقيقة وإنّما هوَ سيّد قومه الخزرج.

(٢) وفي رواية: فقالَ رسول الله ﷺ: «لعلّك أخطأَ سمعك، لعلّك شبّهَ عليك». مغازي الواقدي [٢/ ٤١٧]، ثم إن تكذيب سيد القوم، وتصديق غلام صغير قد لا يكون مقبولا عند كثير من الناس في هذه المرحلة.

(٣) وفي رواية أحمد [١٨٧٩٩]: فرجعت إلى المنزل، فنمت كئيباً حزيناً.

(٤) وفي رواية قالَ: فبينما أنا أسيرُ معَ رسول الله ﷺ قدْ خفقتُ برأسي منَ الهمِّ، أتاني فعركَ بأذني وضحكَ في وجهي، فما كانَ يسرّني أنَّ لي بها الخلدَ في الدّنيا. ثمَّ إنَّ أبا بكرٍ لحقني فقالَ: ما قالَ لكَ رسولُ الله ﷺ، قلتُ ما قالَ لي شيئاً إلّا أنّهُ عركَ أذني وضحكَ في وجهي.

فقالَ: أبشرْ. ثمَّ لحقني عمرُ فقلتُ لهُ مثلَ قولي لأبي بكرٍ. فلمّا أصبحنا قرأَ رسولُ الله ﷺ سورةَ المنافقينَ.

رواه الترمذي [٣٣١٣]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٣٣١٣].

قالَ: ثمَّ دعاهمْ النّبيُّ ﷺ؛ ليستغفرَ لهمْ قالَ: فلوّوا رءوسهمْ[١].

من فوائد الحديث:

فيهِ: تركُ مؤاخذةِ كبراءِ القومِ بالهفواتِ؛ لئلّا ينفرَ أتباعهمْ، والاقتصارُ على معاتباتهمْ، وقبولِ أعذارهمْ، وتصديقِ أيمانهمْ، وإنْ كانتِ القرائنُ ترشدُ إلى خلافِ ذلكَ؛ لما في ذلكَ منَ التّأنيسِ والتّأليفِ.

وفيهِ: جوازُ تبليغِ ما لا يجوزُ للمقولِ فيهِ، ولا يعدُّ نميمةً مذمومةً إلّا إنْ قصدَ بذلكَ الإفسادَ المطلقَ، وأمّا إذا كانتْ فيهِ مصلحةٌ ترجّحُ على المفسدة فلا[٢].

وقد كان النبيُّ ﷺ يقرأ هذه السورة (المنافقون) كل جمعة توبيخاً لهم وحثّاً لهم على التوبة:

عنْ عبد الله بنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يقرأُ في صلاةِ الفجرِ يومَ الجمعةِ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السّجدةِ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

وأنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يقرأُ في صلاةِ الجمعةِ سورةَ الجمعةِ والمنافقينَ[٣].

قال النووي: «قالَ العلماء: والحكمة في قراءة الجمعة اشتمالها على وجوب الجمعة وغير ذلكَ منْ أحكامها، وغير ذلكَ ممّا فيها منَ القواعد، والحثِّ على التّوكّل والذّكر وغير ذلكَ.

وقراءة سورة المنافقينَ لتوبيخِ حاضريها منهمْ، وتنبيههمْ على التّوبة، وغير ذلكَ ممّا فيها منَ القواعد؛ لأنّهمْ ما كانوا يجتمعونَ في مجلس أكثر منِ اجتماعهمْ فيها»[٤].

ومع عفو النبي ﷺ عن ابن سلول، وترفّقه به إلا أنه لما وصل أذاه إلى أهل بيته اشتدَّ في معاملته، وطلب من قومه الأخذ على يديه.

---

(١) رواه البخاري [٤٩٠٠]، ومسلم [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٧٧٢].

(٢) فتح الباري [٨/ ٦٤٦].

(٣) رواه مسلم [٨٧٩].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم [٦/ ١٦٧].

فقد حاك المنافقون في هذه الغزوة (غزوة بني المصطلق) حادثة الإفك بعد أن فشلَ كيدهم في المحاولة الأولى؛ لإثارة النعرة الجاهلية.

والذي تولّى كبرَ الإفك هو: عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

فهو الذي بدأ بالكلام في الإفك، وكان يصول فيه ويجول، وكان يجمع الناس في بيته ممن هم على شاكلته في الخبثِ والنفاق، وكان يذيع ذلك، ويردّده مع عصابته.

ولما انتشر الكلام في ذلك من قبلهم، وكانوا يتناقلونه فيما بينهم، أثر ذلك في بعض المؤمنين فانزلقوا معهم، وصاروا يتكلمون بذلك مع من تكلم، ويرددون قول الإفك والنفاق دون وعي وإدراك لما يقصده ابن أبي من وراء ذلك.

فلما بلغ الأمر مبلغه من الحرج والضيق بالنبي ﷺ والمسلمين؛ قام النبيُّ ﷺ خطيباً فكلم أصحابه فيه، فقالَ: «**منْ يعذرني[1] منْ رجلٍ بلغني أذاهُ في أهلي، فوالله ما علمتُ على أهلي إلّا خيراً، وقدْ ذكروا رجلاً ما علمتُ عليهِ إلّا خيراً، وما كانَ يدخلُ على أهلي إلّا معي**».

فقامَ سعدُ بنُ معاذٍ فقالَ: يا رسولَ الله أنا والله أعذركَ منهُ، إنْ كانَ منَ الأوسِ[2] ضربنا عنقهُ، وإنْ كانَ منْ إخواننا منْ الخزرجِ أمرتنا، ففعلنا فيهِ أمركَ.

قالت عائشة: فقامَ سعدُ بنُ عبادةَ وهوَ سيّدُ الخزرجِ، وكانَ رجلاً صالحاً، ولكنِ اجتهلتهُ الحميّةُ[3]، فقالَ لسعدِ بنِ معاذٍ: كذبتَ لعمرُ الله لَا تقتلهُ، ولَا تقدرُ على قتلهِ. فقامَ أسيدُ بنُ حضيرٍ، وهوَ ابنُ عمِّ سعدِ بنِ معاذٍ، فقالَ لسعدِ بنِ عبادةَ: كذبتَ لعمرُ الله لنقتلنّهُ، فإنّكَ منافقٌ تجادلُ عنِ المنافقينَ.

---

(١) أي: ينصرني، والعذير النّاصر.

(٢) وهم قبيلة سعد.

(٣) أي: استخفته، وأغضبته، وحملته على الجهل.

فثـارَ الحيّـانِ الأوسُ والخـزرجُ حتّى همّوا ورسـولُ الله ﷺ على المنبرِ، فنـزلَ، فخفّضهمْ حتّى سكتوا وسكتَ[1].

من فوائد الحديث:

فيهِ: أنَّ التّعصّبَ لأهلِ الباطل يخرجُ عنِ اسم الصّلاح.

وفيهِ: النّدبُ إلى قطعِ الخصومةِ، وتسكينِ ثائرةِ الفتنةِ، وسدِّ ذريعة ذلكَ.

وفيهِ: احتمالُ أخفِّ الضّررينِ بزوالِ أغلظهما، وفضلُ احتمال الأذى.

وفيهِ: مباعدةُ منْ خالفَ الرّسولَ، ولوْ كانَ قريباً حميماً.

وفيهِ: أنَّ منْ آذى النّبيّ ﷺ بقولٍ أوْ فعل يقتل؛ لأنَّ سعد بن معاذ أطلقَ ذلكَ، ولمْ ينكرهُ النّبيّ ﷺ[2].

فالمنافقـون كانـوا يحاولون دائـماً زرعَ الفتنة في المجتمع المسـلم، وزعزعتـه من الداخل، أحيانـاً بتخذيل المسـلمين عن الجهاد كما فعلـوا في غزوة أحدٍ عندما رجعـوا بثلثِ الجيش، وأحيانـاً بإثـارة العصبيـة القبلية كـما في غزوة بني المصطلـق، وأحياناً بمحاولة تشـويه أهل الصلاح والإيمان، كما فعلوا مع أمِّ المؤمنين الطاهرةِ العفيفةِ عائشةَ الصدّيقةِ رضي الله عنها.

وكان النبـيُّ ﷺ يقابـلُ كلَّ ذلك بحكمةٍ، وحلمٍ، ورويّةٍ، ويصفحُ كثيراً عنهم؛ طمعاً في هدايتهم، وصلاحهم، ورجوعهم للحقِّ.

ولمـا أعـدَّ النبـيُّ ﷺ العدّةَ لغـزوة تبوك وقتـال الروم في الشـام؛ جاءهُ كثيرٌ مـن المنافقين يستأذنونه بعدم الخروج معه.

وكان ذلك في شـهر رجب سـنةَ تسـعٍ مـن الهجرة، وكانـتْ في زمنِ عسرةٍ مـن الناس، وجـدبٍ مـن البلاد، وفي وقتٍ طابتْ فيـه الثمارُ، والناسُ يحبّون المقـام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون شخوصهم على تلك الحال.

---

(١) رواه البخاري [٢٦٦١] ومسلم [٢٧٧٠].

(٢) ينظر: فتح الباري [٨/ ٤٨٠].

وكان رسول الله ﷺ قلّما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها وورّى بغيرها[1]، إلا ما كان من غزوة تبوكَ؛ لبعد الشّقّةِ، وشدّة الزمان.

فجاءه كثير من المنافقين يستأذنونه في عدم الخروج معه، ويعتذرون بأعذارٍ واهيةٍ، فأذنَ لهم في ذلك، وقبلَ أعذارهم.

وكان ممّنِ استأذنَ منهم: عبدُ الله بن أبيٍّ ابنُ سلول، والجدُّ بن قيس.

وقال قومٌ من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرِّ. ففضحهمُ الله بذلك، وعتب على النبيّ ﷺ في إذنه لهم.

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٤٢].

أي: لو كان خروجهم لطلبِ منفعةٍ دنيويّةٍ سهلة التناولِ، وكان السفر ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي: قريباً سهلاً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾ لعدم المشقّة الكثيرة ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ﴾ أي: طالتْ عليهم المسافةُ، وصعب عليهم السفرُ؛ فلذلك تثاقلوا عنك.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي: سيحلفون أن لهم أعذاراً في تخلّفهم عن الخروج، وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالقعودِ، والكذبِ، والإخبار بغير الواقع، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

---

(١) معنى «ورّى»: ستر، وتستعملُ في إظهارِ شيءٍ معَ إرادةِ غيرِه، كأن يريد أن يغزو جهة الشرق، فيسأل عن أمرٍ في جهة الغرب، ويتجهّز للسفر، فيظن من يراه ويسمعه أنه يريد جهة الغرب. فتح الباري [٦/ ١٥٩] باختصار.

ثم عاتب الله تعالى نبيه ﷺ على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

أي: سامحك الله وغفرَ لك مما أجريت ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ في التخلّفِ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بأن تمتحنهم؛ ليتبيّنَ لك الصادقُ من الكاذبِ، فتعذرَ من يستحقُّ العذرَ ممن لا يستحقُّ ذلك[١].

هلا تركتهم لمّا استأذنوك، فلم تأذنْ لأحد منهم في القعود؛ لتعلم الصادقَ منهم في إظهارِ طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرّين على القعود عن الغزو، وإن لم تأذن لهم فيه[٢].

وقد خرج مع النبيِّ ﷺ في هذه الغزوة قلّةٌ من المنافقين، وحاولوا اغتيال النبيِّ ﷺ في طريق العودة، فعصمهُ الله منهم.

وهم خمسة عشر رجلاً تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنّم العقبة بالليل.

عنْ أبي الطّفيلِ قالَ: لمّا أقبلَ رسولُ الله ﷺ منْ غزوةِ تبوكَ، أمرَ منادياً، فنادى: إنَّ رسولَ الله ﷺ أخذَ العقبةَ[٣]، فلا يأخذها أحدٌ.

فبينما رسولُ الله ﷺ يقودهُ حذيفةُ، ويسوقُ بهِ عمّارٌ، إذْ أقبلَ رهطٌ متلثّمونَ على الرّواحلِ، غشوا عمّاراً، وهوَ يسوقُ برسولِ الله ﷺ، وأقبلَ عمّارٌ يضربُ وجوهَ الرّواحلِ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ لحذيفةَ: «**قدْ، قدْ**»[٤]، حتّى هبطَ رسولُ الله ﷺ.

فلمّا هبطَ رسولُ الله ﷺ نزلَ، ورجعَ عمّارٌ.

فقالَ: «**يا عمّارُ، هلْ عرفتَ القومَ؟**».

---

(١) تفسير السعدي [١/ ٣٣٨].

(٢) تفسير ابن كثير [٤/ ١٣٩].

(٣) العقبةُ: طريقٌ في الجبلِ وعر.

(٤) أي: حسبك، وهي بمعنى: كفى كفى.

فقالَ: قدْ عرفتُ عامّةَ الرّواحلِ، والقومُ متلثّمونَ.

قالَ: «**هلْ تدري ما أرادوا؟**».

قالَ: الله ورسولهُ أعلمُ.

قالَ: «**أرادوا أنْ ينفروا برسولِ الله ﷺ، فيطرحوهُ**».

فعذرَ رسولُ الله ﷺ منهمْ ثلاثةً، قالوا: والله ما سمعنا مناديَ رسولِ الله ﷺ، وما علمنا ما أرادَ القومُ.

فقالَ عمّارٌ: أشهدُ أنَّ الاثنيْ عشرَ الباقينَ حربٌ لله ولرسولهِ في الحياةِ الدّنيا، ويومَ يقومُ الأشهادُ[1].

وقد أنزل الله في هؤلاء قوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال النووي: «وهذهِ العقبة ليستِ العقبة المشهورة بمنًى الّتي كانتْ بها بيعةُ الأنصار رضي الله عنهم، وإنّما هذهِ عقبة على طريق تبوك، اجتمعَ المنافقونَ فيها للغدرِ برسولِ الله ﷺ في غزوة تبوكَ، فعصمهُ الله منهمْ»[2].

وقال ابنُ الأثير: «قد يظنُّ بعض من لا علم عنده، أن أصحاب العقبة المذكورين في هذا الحديث: هم أصحابُ العقبة الذين بايعوا النبي ﷺ في أول الإسلام، وحاشاهم من ذلك.

إنما هؤلاء قوم عرضوا لرسول الله ﷺ في عقبة صعدها لما قفلَ منْ غزوة تبوك، وقد كان أمر منادياً، فنادى: «**لا يطلع العقبة أحد، لا يطلع العقبةَ أحد**»، فلما أخذها النبيُّ ﷺ عرضوا له، وهم ملثّمونَ، لئلا يعرفوا، أرادوا به سوءاً، فلم يقدرهم الله تعالى»[3].

---

(١) رواه أحمد في مسنده [٢٣٢٨٠]، وقال الهيثمي في المجمع [٦/ ١٩٥]: «رجاله رجال الصحيح»، وقال الأرناؤوط: «إسناده قوي على شرط مسلم»، وأصل هذه القصة في صحيح مسلم [٢٧٧٩] مختصرة.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [١٧/ ١٢٦].

(٣) جامع الأصول من أحاديث الرسول [١ / ٩٣٠٦].

وقد توعّد النبيُّ ﷺ هؤلاء المجرمين المتلثّمين:

عـنْ حذيفـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النّبي ﷺ قالَ: «**في أمّتي**[1] **اثنا عشَر منافقاً، لا يدخلونَ الجنّةَ، ولا يجدونَ ريحها، حتّى يلجَ الجملُ في سمِّ الخياطِ، ثمانيةٌ منهمْ تكفيكهمُ الدّبيلةُ: سراجٌ منَ النّارِ يظهرُ في أكتافهمْ حتّى ينجمَ منْ صدورهمْ**»[2].

«**في أصحـابي**» أي: مندسّـين بينهم، وليسـوا منهم على الحقيقة كـما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، فهم ينسبون إلى صحبتي، فهم في الظاهر معي، لكن في الباطن هم ضدّي.

«**اثنـا عشرَ منافقاً**» وهـم الذين جـاؤوا متلثّمين، وقد قصدوا النبي ليلة العقبة، فحماه الله منهم، وأعلمه بأسمائهم[3].

«**تكفيكهمُ**»، أيْ: تدفعُ شرّهمُ.

«**يظهـرُ في أكتافهـمْ**» أي: ورماً حارّاً يحـدثُ في أكتافهمْ، بحيثُ يظهرُ أثـرُ تركِ الحرارةِ، وشدّةُ لهبها في صدورهمْ ممثّلةً بسراجٍ منْ نارٍ، وهوَ شعلةُ المصباحِ[4].

أي: أن الله يهلك هؤلاء الثمانية من المنافقين بهذا الداء في الدنيا[5].

وقـد أخبر النبيُّ ﷺ حذيفةَ بأسـماء هؤلاء الاثنـي عشر منافقاً، ولم يخبرْ بأسـمائهم أحداً غيره.

قال شـيخ الإسـلام: «وفي غزوةِ تبوكَ اسـتنفرهمُ النّبيُّ ﷺ كما اسـتنفرَ غيرهمْ، فخرجَ بعضهمْ معهُ، وبعضهمْ تخلّفوا.

---

(١) وفي رواية: في أصحابي.

(٢) رواه مسلم [٢٧٧٩].

(٣) فيض القدير [٤/ ٤٥٤].

(٤) مرقاة المفاتيح [٩/ ٣٨١٦].

(٥) المفهم [٧/ ٣٣٤].

وكانَ في الّذينَ خرجوا معهُ منْ همَّ بقتلهِ في الطّريقِ، همّوا بحلِّ حزامِ ناقتهِ؛ ليقعَ في وادٍ هناكَ.

فجاءهُ الوحيُ، فأسرَّ إلى حذيفةَ أسماءهمْ؛ ولذلكَ يقالُ: هوَ صاحبُ السّرِّ الّذي لا يعلمهُ غيرهُ، كما ثبتَ ذلكَ في الصّحيحِ»[1].

قال ابن كثير: «ولهذا كان حذيفة يقال له: صاحب السّرِّ الذي لا يعلمه غيره، أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره»[2].

وعن عروةَ بن الزّبيرِ رضي الله عنه قال: بلغنا أنَّ رسولَ الله ﷺ حينَ غزا تبوكَ نزلَ عنْ راحلتهِ فأوحىَ إليهِ وراحلتهُ باركةٌ، فقامتْ تجرُّ زمامها حتّى لقيها حذيفةُ بنُ اليمانِ، فأخذَ بزمامها فاقتادها حتّى رأى رسولَ الله ﷺ جالساً، فأناخها ثمَّ جلسَ عندها، حتّى قامَ رسولُ الله ﷺ.

فأتاهُ. فقالَ: «**منْ هذا؟**».

فقالَ: حذيفةُ بنُ اليمان.

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**فإنّى أسرُّ إليكَ أمراً فلاَ تذكرنّهُ، إنّى قدْ نهيتُ أنْ أصلّىَ على فلانٍ وفلانٍ**». رهطٍ ذوى عددٍ منَ المنافقينَ، لمْ يعلمْ رسولَ الله ﷺ ذكرهمْ لأحدٍ غيرَ حذيفةَ بنِ اليمانِ.

فلمّا توفّىَ رسولُ الله ﷺ كانَ عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه فى خلافتهِ إذا ماتَ رجلٌ يظنُّ أنّهُ منْ أولئكَ الرّهطِ أخذَ بيدِ حذيفةَ، فاقتادهُ إلى الصّلاةِ عليهِ، فإنْ مشى معهُ حذيفةُ صلّى عليهِ، وإنِ انتزعَ حذيفةُ يدهُ فأبى أنْ يمشىَ معهُ انصرفَ عمرُ معهُ فأبى أنْ يصلّىَ عليهِ، وأمرَ عمرُ رضي الله عنه أنْ يصلّى عليهِ[3].

وقد يظنُّ البعضُ أن النبيَّ ﷺ أعلم حذيفة بأسماء جميع المنافقين، وهذا غيرُ صحيح؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يكن يعلم أعيانَ جميع المنافقين، وإنما كان يعرفُ بعضهم بأعيانهم، ويعرفُ بعضهم بالصفاتِ.

---

(١) مجموع الفتاوى [٧/ ٢١١].

(٢) تفسير ابن كثير [٤/ ١٨٢].

(٣) رواه البيهقي في الكبرى [١٧٢٩٧] هكذا مرسلا.

والنبي ﷺ إنما أعلمَ حذيفةَ بأسماءِ هؤلاءِ المنافقين الذين همّوا بقتله فقط.

فقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

ففيها دليلٌ على أنه لم يعرفهم، ولم يدلَّ على أعيانهم، وإنما كانت تذكرُ له صفاتهم، فيتوسّمها في بعضهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]»[(١)].

فهو يعرفهم من باب التوسّم فيهم بصفاتٍ يعرفون بها، لا أنه يعرفُ جميعَ من عنده من أهل النفاق، والرّيبِ على التعيين.

ومن الأمورِ التي ظهرت من المنافقين في هذه الغزوة: الاستهزاءُ بالمؤمنين.

ولقد قابل النبيُّ ﷺ هذا الاستهزاءَ بشدّةٍ وحزم:

عنْ عبدِ الله بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رجلٌ في غزوةِ تبوكَ في مجلسٍ يوماً: ما رأيتُ مثلَ قرّائنا هؤلاءِ، لا أرغبَ بطوناً، ولا أكذبَ ألسنةً، ولا أجبنَ عندَ اللّقاءِ[(٢)].

فقالَ رجلٌ في المجلسِ: كذبتَ ولكنّكَ منافقٌ، لأخبرنّ رسولَ الله ﷺ.

فبلغَ ذلكَ النّبيَّ ﷺ، ونزلَ القرآنُ.

قالَ عبدُ اللهِ: فأنا رأيتهُ متعلّقاً بحقبِ[(٣)] ناقةِ رسولِ الله ﷺ تنكبهُ الحجارةُ وهوَ يقولُ: يا رسولَ الله: «إنّما كنّا نخوضُ ونلعبُ»[(٤)].

---

(١) تفسير ابن كثير [٤/ ٢٠٤].

(٢) أرغب بطونا: يعني: أنهم واسعو البطون من كثرة الأكل، وليس لهم همٌّ إلا الأكل. ولا أكذب ألسنة، يعني: أنهم يتكلمون بالكذب، ولا أجبن عند اللقاء، أي: أنهم يخافون لقاء العدو، ولا يثبتون بل يفرّون ويهربون، وهذه الصفات تنطبق على المنافقين تماماً لا على المؤمنين.
شرح رياض الصالحين [٢/ ١٠١] لابن عثيمين

(٣) الحقب: حبل يشد به الرحل في بطن البعير مما يلي ذيله.

(٤) وفي رواية: حديث الركب نقطع به عناء الطريق.

ورسولُ الله ﷺ، يقولُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥][1].

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

فالاستهزاءُ بدين الله من علاماتِ المنافقين.

والاستهزاءُ بالله وآياته ورسوله كفرٌ مخرجٌ عن الدين؛ لأن أصلَ الدين مبنيٌّ على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاءُ بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل، ومناقضٌ له أشدَّ المناقضة.

ولهذا لما جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون بهذه المقالة، كان رسولُ الله ﷺ لا يزيدهم على قوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وقد يقول قائل: الذي في القصة ليس استهزاءً بالدين مباشرة، وإنما هو استهزاءٌ بأشخاص.

فنقول: إنه ليس استهزاءً بهم لأجل أشخاصهم، أو قبائلهم، وإنما هو استهزاءٌ بهم لأجل دينهم؛ بدليل قولهم: (ما رأينا مثلَ قرّائنا هؤلاءِ).

وقد سمّيتْ سورةُ التوبةِ بالفاضحةِ؛ لأنها فضحتِ المنافقين، وكشفتْ أسرارهم، وبيّنتْ مخطّطاتهم، وأهدافهم، وكلامهم، وطرقهم في العملِ لهدم المجتمع المسلم.

عنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ قالَ: قلتُ لابنِ عبّاسٍ: سورةُ التّوبةِ.

قالَ: «التّوبةُ هيَ الفاضحةُ ما زالتْ تنزلُ: (ومنهمْ)، (ومنهمْ) حتّى ظنّوا أنّها لنْ تبقيَ أحداً منهمْ إلّا ذكرَ فيها»[2].

---

(١) رواه الطبري في تفسيره [١٦٩١٢]، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) رواه البخاري [٤٨٨٢].

ومن السياسات التي اتخذها النبي ﷺ لمواجهة المنافقين: هدم أماكن تجمّعاتهم الظاهرة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ أي: مضارّةً للمؤمنين، ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه.

﴿وَكُفۡرٗا﴾ أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصدَ غيرهم الإيمان.

﴿وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ليتشعّبوا ويتفرّقوا ويختلفوا، ﴿وَإِرۡصَادٗا﴾ أي: إعداداً ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ أي: إعانةً للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدّم حرابهم، واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي ذهب إلى المشركين يستعينُ بهم على حربِ رسول الله ﷺ، فلمّا لم يدركْ مطلوبهُ عندهم ذهبَ إلى قيصرَ بزعمه أنه ينصره، فهلكَ اللعينُ في الطريقِ، وكان على وعد ومماألأة، هو والمنافقون.

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ في بنائنا إياه ﴿إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: الإحسانَ إلى الضعيفِ، والعاجزِ والضريرِ.

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فشهادةُ الله عليهم أصدقُ من حلفهم.

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا﴾ أي: لا تصلِّ في ذلك المسجد الذي بني ضراراً أبداً. فالله يغنيك عنه، ولستَ بمضطرٍّ إليه.

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباء»، وهو مسجد «قباء» أسّسَ على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديماً في هذا عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ وتتعبّد وتذكر الله تعالى فهو فاضلٌ، وأهله فضلاء؛ ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ من الذنوب، ويتطهّروا من الأوساخ، والنجاساتِ والأحداثِ.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ الطهـارة المعنويـة، كالتنـزّه من الشّركِ والأخـلاقِ الرذيلةِ، والطهارة الحسّيّةِ كإزالة الأنجاسِ، ورفع الأحداثِ[1].

وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجدِ الذي يقصدُ به الضّرارُ لمسجد آخرَ بقربه أنه محرّمٌ، وأنه يجبُ هدمُ مسجدِ الضّرارِ الذي اطّلعَ على مقصودِ أصحابه.

ومنهـا: أن العملَ وإن كان فاضلا تغيّره النّيةُ، فينقلبُ منهيّاً عنه، كما قلبتْ نيةُ أصحابِ مسجدِ الضّرارِ عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصلُ بها التفريقُ بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعيّنُ تركها، وإزالتها.

كـما أن كل حالـة يحصـلُ بها جمـعُ المؤمنـين وائتلافهم يتعـيّنُ اتّباعها والأمـر بها والحثُّ عليهـا؛ لأن الله علّل اتخاذهم لمسـجد الـضرار بهذا المقصدِ الموجبِ للنهـيِ عنه، كما يوجبُ ذلك الكفرَ، والمحاربةَ لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنهـا: أن المعصيـة تؤثّرُ في البقاع، كما أثّرتْ معصيةُ المنافقين في مسـجدِ الضّرارِ، ونهيَ عنِ القيام فيه، وكذلك الطاعةُ تؤثّرُ في الأماكن كما أثّرتْ في مسـجدِ قباءٍ حتى قال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ولهذا كان لمسجدِ قباءٍ منَ الفضلِ ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزورُ قباء كلَّ سبتٍ يصلّي فيه[2]، وحثَّ على الصلاة فيه[3].

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

---

(١) تفسير السعدي [١/ ٣٥١].

(٢) رواه البخاري [١١٩٢] ومسلم [١٣٩٩] عن ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) روى الترمذي [٣٢٤] عن أسيد بن ظهير عن النبي ﷺ قال: «**الصلاة في مسجد قباء كعمرة**» وصححه الألباني.

كل عمل فيه مضارّةٌ لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريقٌ بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرّمٌ ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسّيّةَ الناشئةَ عن معصيةِ الله لا تزال مبعدةً لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها، ويتوب منها توبةً تامّةً بحيثُ يتقطع قلبه من الندم والحسراتِ.

ومنها: أنه إذا كان مسجدُ قباء مسجداً أسّسَ على التقوى، فمسجدُ النبيِّ ﷺ الذي أسّسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبنيَّ على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسّسُ على التقوى، الموصّلُ لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبنيُّ على سوء القصدِ، وعلى البدعِ والضلالِ هو العمل المؤسّسُ على شفا جرفٍ هارٍ، فانهارَ به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين[1].

قال ابن كثير: «سببُ نزولِ هذهِ الآياتِ الكريماتِ، أنّهُ كانَ بالمدينةِ قبلَ مقدمِ رسولِ الله ﷺ إليها رجلٌ منَ الخزرجِ يقالُ لهُ أبو عامرٍ الرّاهبُ، وكانَ قدْ تنصّرَ في الجاهليّةِ، وقرأَ علمَ أهلِ الكتابِ، وكانَ فيهِ عبادةٌ في الجاهليّةِ، ولهُ شرفٌ في الخزرجِ كبيرٌ.

فلمّا قدمَ رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينةِ، واجتمعَ المسلمونَ عليهِ، وصارتْ للإسلامِ كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهمُ الله يومَ بدرٍ؛ شرقَ اللّعينُ أبو عامرٍ بريقهِ وبارزَ بالعداوةِ؛ وظاهرَ بها، وخرجَ فارّاً إلى كفّارِ مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حربِ رسولِ الله ﷺ.

فاجتمعوا بمنْ وافقهمْ منْ أحياءِ العربِ، وقدموا عامَ أحدٍ، فكانَ منْ أمرِ المسلمينَ ما كانَ، وامتحنهمُ الله عَزَّوَجَلَّ، وكانتِ العاقبةُ للمتّقينَ.

وكانَ هذا الفاسقُ قدْ حفرَ حفائرَ فيما بينَ الصّفّينِ، فوقعَ في إحداهنَّ رسولُ الله ﷺ،

---

(١) تفسير السعدي [١/ ٣٥١].

وأصيبَ ذلك اليومَ، فجرحَ وجههُ، وكسرتْ رباعيتهُ اليمنى السّفلى، وشجَّ رأسهُ صلواتُ الله وسلامهُ عليهِ.

وتقدّمَ أبو عامرٍ في أوّلِ المبارزةِ إلى قومهِ منَ الأنصارِ، فخاطبهمْ، واستمالهمْ إلى نصرهِ، وموافقتهِ.

فلمّا عرفوا كلامهُ قالوا: لا أنعمَ الله بكَ عيناً يا فاسقُ، يا عدوَّ الله، ونالوا منهُ، وسبّوهُ، فرجعَ وهوَ يقولُ: والله لقدْ أصابَ قومي بعدي شرٌّ.

وكانَ رسولُ الله ﷺ قدْ دعاهُ إلى الله قبلَ فرارهِ، وقرأَ عليهِ منَ القرآنِ، فأبى أنْ يسلمَ وتمرّدَ، فدعا عليهِ رسولُ الله ﷺ أنْ يموتَ بعيداً طريداً، فنالتهُ هذهِ الدّعوةُ.

وذلكَ أنّهُ لمّا فرغَ النّاسُ منْ أحدٍ، ورأى أمرَ الرّسولِ ﷺ في ارتفاعٍ وظهورٍ؛ ذهبَ إلى هرقلَ ملكِ الرّومِ يستنصرهُ على النّبيِّ ﷺ، فوعدهُ، ومنّاهُ، وأقامَ عندهُ، وكتبَ إلى جماعةٍ منْ قومهِ منَ الأنصارِ منْ أهلِ النّفاقِ والرّيبِ يعدهمْ، ويمنّيهمْ أنّهُ سيقدمُ بجيشٍ يقاتلُ بهِ رسولَ الله ﷺ، ويغلبهُ ويردّهُ عمّا هوَ فيهِ.

وأمرهمْ أنْ يتّخذوا لهُ معقلاً يقدمُ عليهمْ فيهِ منْ يقدمُ منْ عندهِ لأداءِ كتبهِ، ويكونُ مرصداً لهُ إذا قدمَ عليهمْ بعدَ ذلكَ.

فشرعوا في بناءِ مسجدٍ مجاورٍ لمسجدِ قباءٍ، فبنوهُ، وأحكموهُ، وفرغوا منهُ قبل خروجِ رسولِ الله ﷺ إلى تبوكَ.

وجاءوا، فسألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يأتيَ إليهمْ، فيصلّيَ في مسجدهم؛ ليحتجّوا بصلاته فيهِ على تقريرهِ وإثباتهِ، وذكروا أنّهمْ إنّما بنوهُ للضّعفاءِ منهمْ، وأهلِ العلّةِ في اللّيلةِ الشّاتيةِ.

فعصمهُ الله منَ الصّلاةِ فيهِ فقالَ: «**إنّا على سفرٍ ولكنْ إذا رجعنا إنْ شاءَ الله**».

فلمّا قفلَ ﷺ راجعاً إلى المدينةِ منْ تبوكَ، ولمْ يبقَ بينهُ وبينها إلّا يومٌ، أوْ بعضُ يومٍ؛ نزلَ عليه جبريل بخبرِ مسجدِ الضّرارِ، وما اعتمدهُ بانوهُ منَ الكفرِ والتّفريقِ بينَ جماعةِ المؤمنينَ في مسجدهمْ مسجد قباء الذي أسّسَ من أول يوم على التّقوى.

فبعثَ رسولُ الله ﷺ إلى ذلكَ المسجدِ منْ هدمهُ قبلَ مقدمِهِ المدينةَ.. فأنزل الله، عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ...﴾»[(١)].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «رأيتُ الدّخانَ منْ مسجدِ الضّرارِ حينَ انهار»[(٢)].

وفاة عبد الله بن أبي بن سلول:

ولما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوكَ توفّيَ ابن سلول[(٣)]، فصلّى عليه الرسولُ ﷺ، وكفّنهُ بقميصه، هذا مع أذيّته لرسول الله ﷺ وللمؤمنين.

عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: جاءَ عبدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ أبيٍّ إلى النّبيِّ ﷺ حينَ ماتَ أبوهُ، فقالَ: أعطني قميصكَ أكفّنهُ فيهِ، وصلِّ عليهِ، واستغفرْ لهُ.

فأعطاهُ قميصهُ وقالَ: «**إذا فرغتمْ فآذنوني**».

فأتى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أبيٍّ بعدَ ما أدخلَ حفرتهُ، فأمرَ بهِ، فأخرجَ فوضعهُ على ركبتيهِ، ونفثَ عليهِ منْ ريقهِ.

قال عمرُ: فلمّا قامَ رسولُ الله ﷺ ليصلّيَ عليه وثبتُ إليهِ، فقلتُ: يا رسولَ الله أتصلّي على ابنِ أبيٍّ، وقدْ قالَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا؟! أعدّدُ عليهِ قولهُ.

فتبسّمَ رسولُ الله ﷺ وقالَ: «**أخّرْ عنّي يا عمرُ**».

فلمّا أكثرتُ عليهِ قالَ: «**إنّي خيّرتُ، فاخترتُ، لوْ أعلمُ أنّي إنْ زدتُ على السّبعينَ يغفرُ لهُ لزدتُ عليها**».

قالَ: فصلّى عليهِ رسولُ الله ﷺ ثمَّ انصرفَ.

فلمْ يمكثْ إلّا يسيراً حتّى نزلتْ الآيتانِ منْ براءةٌ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

---

(١) تفسير ابن كثير [٤/ ١٨٥].

(٢) رواه الحاكم [٨٧٦٣]، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) وقد ماتَ بعدَ منصرفهمْ منْ تبوكَ وذلكَ في ذي القعدة سنةَ تسع.

قالَ: فعجبتُ بعدُ منْ جرأتي على رسولِ الله ﷺ يومئذٍ، والله ورسولهُ أعلمُ[١].

قال ابن حجر: «وإنّما لمْ يأخذ النّبيُّ ﷺ بقول عمرَ وصلّى عليهِ إجراءً لهُ على ظاهر حكم الإسلام، واستصحاباً لظاهرِ الحكم، ولما فيهِ منْ إكرام ولده الّذي تحقّقتْ صلاحيته، ومصلحة الاستئلاف لقومهِ، ودفع المفسدة»[٢].

وقالَ الخطّابيُّ: «إنّما فعلَ النّبيّ ﷺ معَ عبد الله بن أبيٍّ ما فعلَ؛ لكمالِ شفقته على منْ تعلّقَ بطرفٍ منَ الدّين، ولتطييبِ قلب ولده عبد الله الرّجل الصّالح، ولتألّفِ قومه منْ الخزرج لرياستهِ فيهمْ، فلوْ لمْ يجبْ سؤال ابنه وتركَ الصّلاة عليهِ قبلَ ورود النّهي الصّريح؛ لكانَ سبّةً على ابنه، وعاراً على قومه، فاستعملَ أحسن الأمرينِ في السّياسة إلى أنْ نهيَ فانتهى»[٣].

وقيل: إنّما أعطاهُ قميصه مكافأة لعبدِ الله المنافق الميّت؛ لأنّهُ كانَ ألبسَ العبّاسَ حينَ أسرَ يوم بدر قميصاً. قالَ سفيانُ بن عيينة: «فيرونَ أنَّ النّبيَّ ﷺ ألبسَ عبدَ الله قميصهُ مكافأةً لما صنعَ»[٤].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا الحديث: بيانُ عظيمِ مكارم أخلاق النّبيِّ ﷺ؛ فقدْ علمَ ما كانَ منْ هذا المنافق منْ الإيذاء، وقابلهُ بالحسنى، فألبسهُ قميصاً كفناً، وصلّى عليهِ، واستغفرَ لهُ. قالَ الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]»[٥].

وقال شيخ الإسلام: «من كان مظهراً للإسلام فإنه تجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة: من المناكحة والموارثة، ونحو ذلك، لكن من علم منه النفاق والزندقة؛ فإنه لا يجوز لمن علم ذلك منه الصلاة عليه وإن كان مظهراً الإسلام، فإن الله نهى نبيه عن الصلاة على المنافقين.

وأما من شكَّ في حاله؛ فتجوزُ الصلاةُ عليه إذا كان ظاهره الإسلام»[٦].

---

(١) رواه البخاري [١٢٦٩] ومسلم [٢٧٧٤].

(٢) فتح الباري [٨/ ٣٣٦].

(٣) فتح الباري [٨/ ٣٣٦].

(٤) رواه البخاري [١٣٥٠].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم [١٥/ ١٦٧].

(٦) الفتاوى الكبرى [٣/ ١٧-١٩] باختصار.

وقد تاب بعض هؤلاء المنافقين، منهم: الجلاس بن سويد.

وكان من الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، وكان يثبّطُ الناسَ عن الخروج، وكان عمير بن سعيد يتيماً في حجره، وأمه تحتَ الجلاس، وكان يكفله، ويحسنُ إليه.

فسمعه وهو يقول: والله، لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير!

فقال له عمير: يا جلاس، لقد كنتَ أحبَّ الناس إليَّ، وأحسنهم عندي أثراً، وأعزهم علي أن يدخل عليه شيءٌ نكرهه؛ والله لقد قلتَ مقالةً لئن ذكرتها لتفضحنّك، ولئن كتمتها لأهلكنَّ، وإحداهما أهونُ عليَّ من الأخرى!

فذكر للنبي ﷺ مقالةَ الجلاس، فبعثَ النبيُّ ﷺ إلى الجلاس، فسأله عما قال عمير. فحلف الجلاس بالله لرسول الله ﷺ: «لقد كذب عليَّ عميرٌ، وما قلتُ ما قال عميرٌ».

فقال عمير: «بلى والله قلته، فتبْ إلى الله تعالى، ولولا أن ينزل قرآن، فيجعلني معك ما قلته».

فجاء الوحيُ إلى رسول الله ﷺ، فسكتوا لا يتحرّك أحدٌ.

وكذلك كانوا يفعلون لا يتحرّكون إذا نزل الوحيُ.

فرفع عن رسول الله ﷺ، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

فقال الجلاس: «قد قلته، وقد عرض الله عليَّ التوبةَ، فأنا أتوبُ».

فاعترفَ بذنبه، وحسنتْ توبته، ولم يمتنعْ عن خيرٍ كان يصنعه إلى عمير بن سعيد.

قال عروة: فما زال عمير في علياء بعد هذا حتى مات[1].

---

(١) هذه القصة رواها ابن جرير الطبري [١٤/ ٣٦١]، وعبد الرزاق في المصنف [١٨٣٠] عن عروة ابن الزبير مرسلة، وقال ابن عبد البر: «وقصته مشهورة في التفاسير». الاستيعاب [١ / ٧٩].

ومن مراسيل ابن سيرين قال: لما نزلت هذه الآية: أخذ النبي ﷺ بأذن عمير وقال: «**يا غلامُ وفتْ أذنكَ، وصدّقكَ ربّكَ**»(١).

وقد استعمل عمر بن الخطاب عمير بن سعيد هذا على حمص، ومات عمير هذا بالشام، وكان عمر بن الخطاب يقول: «وددتُ لو أن لي رجلاً مثل عمير أستعينُ به على أعمال المسلمين»(٢).

وكان النبي ﷺ يصبر على ما يصيبه من أذى المنافقين:

عنْ عبدِ الله ابن مسعود قالَ: لمّا كانَ يومُ حنينٍ آثرَ رسولُ الله ﷺ ناساً في القسمةِ، فأعطى الأقرعَ بنَ حابسٍ مائةً منْ الإبلِ، وأعطى عيينةَ مثلَ ذلكَ، وأعطى أناساً منْ أشرافِ العربِ، وآثرهمْ يومئذٍ في القسمةِ.

فقالَ رجلٌ: والله إنَّ هذهِ لقسمةٌ ما عدلَ فيها وما أريدَ فيها وجهُ الله.

قالَ فقلتُ: والله لأخبرنَّ رسولَ الله ﷺ.

فأتيتهُ فأخبرتهُ بما قالَ.

فغضبَ منْ ذلكَ غضباً شديداً واحمرَّ وجههُ حتّى تمنّيتُ أنّي لمْ أذكرهُ لهُ. قالَ: ثمَّ قالَ: فمنْ يعدلُ إنْ لمْ يعدلْ الله ورسوله.

ثمَّ قالَ: «**يرحمُ الله موسى قدْ أوذيَ بأكثرَ منْ هذا فصبرَ**»(٣).

من فوائد الحديث:

فيهِ: الإعراضُ عنِ الجاهل، والصّفحُ عنِ الأذى، والتّأسّي بمنْ مضى منَ النّظراء.

وقد سلكَ النبي ﷺ مع هذا المنافقِ مسلكه معَ غيره منَ المنافقينَ الّذينَ آذوهُ، وسمعَ منهمْ في غير موطن ما كرههُ، لكنّهُ صبرَ استبقاءً لانقيادهمْ وتأليفاً لغيرهمْ، لئلّا يتحدّث النّاس أنّهُ يقتل أصحابه فينفروا.

---

(١) رواه عبد الرزاق [١٨٣٠٤].

(٢) أسد الغابة [١ / ٨٧٣].

(٣) رواه البخاري [٣٤٠٥] ومسلم [١٠٦٢] واللفظ له.

وفيهِ: أنَّ أهل الفضل قدْ يغضبهمْ ما يقال فيهمْ ممّا ليسَ فيهمْ، ومعَ ذلكَ فيتلقّونَ ذلكَ بالصّبرِ، والحلم كما صنعَ النّبيّ ﷺ اقتداءً بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

وكان هدي النبي ﷺ في المنافقين يقوم على كشف صفاتهم وأعمالهم أكثر من التركيز على معرفة أعيانهم وأسمائهم:

وقد سبق معنا أن أسماء بعض المنافقين كانت تخفى على النبيِّ ﷺ، ولكنَّ خفاءَ أسمائهم لا يعني خفاءَ علاماتهم وصفاتهم، بل هم معروفون للصحابة والنبيِّ ﷺ إمّا بأعيانهم، أو بعلاماتهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناكَ أشخاصهم، فعرفتهم عياناً. ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين؛ ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، وردّاً للسرائر إلى عالمها.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾، أي: فيما يبدو من كلامهم، الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أيِّ الحزبين هو، بمعاني كلامه، وفحواه، وهو المراد من لحنِ القول»[2].

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وإن لم يعلموا بعض المنافقين بأعيانهم، إلا أنهم كانوا يعرفونهم بصفاتهم.

ومن ذلك قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يتحدّثُ عن صلاة الجماعة: «ولقدْ رأيتنا وما يتخلّفُ عنها إلّا منافقٌ معلومُ النّفاقِ»[3].

وقول كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحكي قصة تخلفه عن غزوة تبوك: «فطفقتُ إذا خرجتُ في النّاسِ بعدَ خروجِ رسولِ الله ﷺ يحزنني أنّي لا أرى لي أسوةً إلّا رجلاً مغموصاً عليهِ في النّفاقِ، أوْ رجلاً ممّنْ عذرَ الله منْ الضّعفاءِ[4].

---

(١) ينظر: فتح الباري [٨/ ٥٦]، [١٠/ ٥١٢].

(٢) تفسير ابن كثير [٧/ ٣٢١].

(٣) رواه مسلم [٦٥٤].

(٤) رواه البخاري [٤٤١٨]، ومسلم [٢٧٦٩].

مغموصاً: أيْ مطعوناً عليهِ في دينه متّهماً بالنّفاقِ[١].

فإنه ظاهرٌ في معرفة الصحابة لهؤلاء المنافقين بصفاتهم، ومواقفهم، ولحن قولهم.

وهذا من تمام حكمة الله، بأن بقي الأمر مربوطاً بصفات وعلامات حتى يحذرها المؤمن، ويخافها في كل زمان ومكانٍ.

ومن تأمّل صفات المنافقين الموجودة في سور: التوبة، والمنافقين، والنور، والبقرة، والنساء، والأحزاب، وغيرها من السّور؛ لوجدها موجودة في كثير من الكتّاب، والصحفيّين، والممثّلين الذين يتكلمون الآن على الملأ، نجد في مقالاتهم وتصريحاتهم وتلميحاتهم نفس كلام المنافقين الأولين، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فكان النبيُّ ﷺ يذكر صفاتهم؛ ليعلمهم الناسُ، ويحذروا منهم:

- **فمن صفات المنافقين التكاسل عن صلاة الفجر والعشاء:**

عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «**ليسَ صلاةٌ أثقلَ على المنافقينَ منَ الفجرِ والعشاءِ، ولوْ يعلمونَ ما فيهما لأتوهما ولوْ حبواً**»[٢].

قال ابن رجب: «وإنما ثقلت هاتان الصلاتان في المساجد على المنافقين أكثر من غيرهما من الصلوات؛ لأن المنافين كما وصفهم الله في القرآن: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، والمرائي إنما ينشطُ للعمل إذا رآه النّاس، فإذا لمْ يشاهدوه ثقل عليهِ العمل.

وقد كانَ النّبيُّ ﷺ يصلّي هاتين الصلاتين في الظلام، فإنه كانَ يغلس بالفجر غالباً، ويؤخّرُ العشاء الآخرة، ولم يكن في مسجده حينئذٍ مصباحٌ، فلمْ يكن يحضر معهُ هاتين الصلاتين إلا مؤمنٌ يحتسبُ الأجر في شهودهما، فكان المنافقون يتخلفون عنهما، ويظنّون أن ذلكَ يخفى على النّبيِّ ﷺ»[٣].

---

(١) فتح الباري [١/ ١٦٣].

(٢) رواه البخاري [٦٥٧] ومسلم [٦٥١].

(٣) فتح الباري لابن رجب [٥ / ٢٣].

• ومن صفاتهم: تأخيرُ الصلاة إلى آخر وقتها:

عنْ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**تلكَ صلاةُ المنافقِ يجلسُ يرقبُ الشّمسَ حتّى إذا كانتْ بينَ قرنيْ الشّيطانِ قامَ فنقرها أربعاً، لا يذكرُ اللهَ فيها إلّا قليلاً**»(١).

«**بين قرنيْ الشّيطان**» قيلَ: هوَ على حقيقته وظاهر لفظه، والمرادُ أنّهُ يحاذيها بقرنيهِ عند غروبها، وكذا عند طلوعها؛ لأنَّ الكفّار يسجدونَ لها حينئذٍ، فيقارنها؛ ليكونَ السّاجدونَ لها في صورة السّاجدينَ لهُ، ويخيّلُ لنفسهِ ولأعوانهِ أنّهمْ إنّما يسجدونَ لهُ.

وقيلَ: هوَ على المجاز، والمراد بقرنهِ وقرنيهِ: علوّهُ وارتفاعه وسلطانه وتسلّطه وغلبته وأعوانه، ومعناهُ أنَّ تأخيرها بتزيينِ الشّيطان ومدافعته لهمْ عنْ تعجيلها كمدافعةِ ذوات القرون لما تدفعهُ. والصّحيح الأوّل(٢).

• ومنها: الكذب وخلف الوعد والخيانة:

عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النّبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا اؤتمنَ خانَ**»(٣).

وعنْ عبدِ الله بنِ عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «**أربعٌ منْ كنَّ فيهِ كانَ منافقاً، أوْ كانتْ فيهِ خصلةٌ منَ النّفاقِ حتّى يدعها: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا عاهدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فجرَ**(٤)»(٥).

---

(١) رواه مسلم [٦٢٢].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم [٥/ ١٢٤].

(٣) رواه البخاري [٣٣]، ومسلم [٥٩].

(٤) أيْ: مالَ عنِ الحقِّ، وقالَ الباطلَ والكذبَ. قالَ أهلُ اللّغةِ: وأصلُ الفجورِ الميلُ عنِ القصدِ. شرح النووي على صحيح مسلم [٢/ ٤٨].

(٥) رواه البخاري [٢٤٥٩] واللفظ له، ومسلم [٥٨].

• ومنها: أنه لا يجتمع في أحدهم حسن سمت ولا فقه في الدين:

عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النّبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**خصلتانِ لا تجتمعانِ في منافقٍ: حسنُ سمتٍ، ولا فقهٌ في الدّينِ**»(١).

«**حسنُ سمتٍ**» أي: تحرّي طرقِ الخيرِ، والتّزيّي بزيِّ الصّالحينَ، معَ التّنزّهِ عنِ المعائبِ الظّاهرةِ، والباطنةِ.

«**ولا فقهٌ في الدّينِ**» حقيقةُ الفقهِ في الدّينِ ما أورثَ الخشيةَ والتّقوى، وأمّا الّذي يتدارسُ أبواباً منهُ ليتعزّزَ بهِ ويتأكّلَ بهِ فإنّهُ بمعزلٍ عنْ الرّتبةِ العظمى؛ لأنَّ الفقهَ تعلّقَ بلسانهِ دونَ قلبهِ(٢).

• ومن صفاتهم: التذبذب والتبعية المذمومة:

عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «**مثلُ المنافقِ كمثلِ الشّاةِ العائرةِ بينَ الغنمينِ، تعيرُ إلى هذهِ مرّةً، وإلى هذهِ مرّةً**»(٣).

قال السندي: ««**العائرة**» أي: المتردّدة بين قطيعينِ منَ الغنم، وهيَ الّتي تطلب الفحل فتتردّد بين قطيعينِ، ولا تستقرّ معَ إحداهما، والمنافق معَ المؤمنينَ بظاهرهِ، ومعَ المشركينَ بباطنهِ تبعاً لهواهُ وعرضه الفاسد، فصارَ بمنزلةِ تلكَ الشّاة، وفيهِ سلب الرّجوليّة عنْ المنافقينَ»(٤).

وصفات المنافقين الذميمة كثيرة، وسورة التوبة مليئة بفضائحهم وصفاتهم التي كشفها الله للمؤمنين؛ للحذرِ منهم، ومنها.

وكان النبي ﷺ يحذّرهم من إيذاء المؤمنين، وتتبّع عوراتهم:

عنْ عبد الله بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: صعدَ رسولُ الله ﷺ المنبرَ، فنادى بصوتٍ رفيعٍ(٥) فقالَ:

---

(١) رواه الترمذي [٢٦٨٤] وصححه الألباني في صحيح الجامع [٣٢٢٩].

(٢) تحفة الأحوذي [٧/ ٣٧٨].

(٣) رواه مسلم [٢٧٨٤].

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح [١/ ١٣٠].

(٥) أيْ: عالٍ.

«يا معشرَ منْ أسلمَ بلسانهِ ولمْ يفضِ الإيمانُ إلى قلبهِ، لا تؤذوا المسلمينَ، ولا تعيّروهمْ[١]، ولا تتّبعوا عوراتهمْ؛ فإنّهُ منْ تتبّعَ عورةَ أخيهِ المسلمِ تتبّعَ اللهُ عورتهُ، ومنْ تتبّعَ اللهُ عورتهُ يفضحهُ ولوْ في جوفِ رحلهِ»[٢].

أيْ: ولوْ كانَ في وسطِ منزلهِ مخفياً منَ النّاسِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ومن إيذائهم للصحابة:

ما ثبت عنْ أبي مسعودٍ البدري قالَ: أمرنا بالصّدقةِ، وكنّا نحامل على ظهورنا[٣].

قالَ: فتصدّقَ أبو عقيلٍ بنصفِ صاعٍ، وجاءَ إنسانٌ بشيءٍ أكثرَ منهُ.

فقالَ المنافقونَ: إنَّ اللهَ لغنيٌّ عنْ صدقةِ هذا، وما فعلَ هذا الآخرُ إلّا رياءً، فنزلتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩][٤].

فتكلّموا فيمنْ أعطى القليلَ بأن الله غني عن صدقته، وفيمنْ أعطى الكثيرَ بأنّهُ مراءٍ.

هكذا المنافقون دأبهم اتّهام المؤمنين بالزّورِ والبهتانِ، دائما يشكّكون، ويطعنون في نوايا كلِّ منْ يقوم على مشروعٍ خيريٍّ، فيتّهمونهم بوجودِ أغراضٍ مشبوهةٍ، كما نرى الآن في كثيرٍ منَ الجرائدِ الطّعنَ في القائمين على الأعمالِ الخيريّةِ ولمزهم؛ ذلك لأن المنافقين لا يحبّون الخير، ولا يحبون قيام أعمال الخير وتناميها؛ لذا فهم يشكّكون في القائمين عليها، سواءٌ كانت هذه الأعمال في المساجدِ، أم في المدارسِ، أم في المصالحِ الحكوميّةِ، أم في غيرِ ذلك.

---

(١) منَ التّعييرِ، وهوَ التّوبيخُ والتّعييبُ.

(٢) رواه الترمذي [٢٠٣٢]، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع [٧٩٨٥].

(٣) معناهُ: نحمل على ظهورنا بالأجرةِ، ونتصدّق منْ تلكَ الأجرة، أوْ نتصدّق بها كلّها.

(٤) رواه البخاري [٤٦٦٨]، ومسلم [١٠١٨].

وربما فضح النبيُّ ﷺ بعضهم، وكشفهم بأعيانهم للتحذير منهم:

عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: دخلَ عليَّ النّبيُّ ﷺ يوماً، وقالَ: «**يا عائشةُ ما أظنُّ فلاناً وفلاناً يعرفانِ منْ ديننا شيئاً**».

قالَ اللّيثُ بن سعد: كانا رجلينِ منْ المنافقينَ(١).

وعنْ جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ الله ﷺ قدمَ منْ سفرٍ، فلمّا كانَ قربَ المدينةِ هاجتْ ريحٌ شديدةٌ تكادُ أنْ تدفنَ الرّاكبَ(٢)، فقال رسولُ الله ﷺ: «**بعثتْ هذهِ الرّيحُ لموتِ منافقٍ**»(٣).

فلمّا قدمَ المدينةَ فإذا منافقٌ عظيمٌ منَ المنافقينَ قدْ ماتَ(٤).

فمات في ذلك اليوم زيد بن رفاعة وهو من منافقي اليهود، كان من عظماء بنى قينقاع وأسلم ظاهراً.

وعن سلمة بن الأكوع قالَ: عدنا معَ رسولِ الله ﷺ رجلاً موعوكاً، فوضعتُ يدي عليهِ، فقلتُ: والله ما رأيتُ كاليومِ رجلاً أشدَّ حرّاً.

فقالَ نبيُّ الله ﷺ: «**ألا أخبركمْ بأشدَّ حرّاً منهُ يومَ القيامةِ؟ هذينكَ الرّجلينِ الرّاكبينِ المقفّينِ**»(٥)، لرجلينِ حينئذٍ منْ أصحابهِ(٦).

قال النووي: «سمّاهما منْ أصحابه لإظهارهما الإسلامَ والصّحبةَ، لا أنّهما ممّنْ نالتهُ فضيلة الصّحبة»(٧).

---

(١) رواه البخاري [٦٠٦٨].

(٢) أيْ: تغيّبهُ عنْ النّاس، وتذهب بهِ لشدّتها.

(٣) أيْ: عقوبة لهُ وعلامة لموتهِ وراحة البلاد والعباد بهِ.

(٤) رواه مسلم [٢٧٨٢].

(٥) أيِ: المولّيين أقفيتهما منصرفين.

(٦) رواه مسلم [٢٧٨٣].

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم [١٧/ ١٢٨].

ومن ذلك: عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: شهدنا خيبرَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ لرجلٍ ممّنْ معهُ يدّعي الإسلامَ[1]: «**هذا منْ أهلِ النّارِ**».

فلمّا حضرَ القتالُ قاتلَ الرّجلُ أشدَّ القتالِ حتّى كثرتْ بِهِ الجراحةُ.

فقيلَ: يا رسولَ اللهِ، الّذي قلتَ لهُ إنّهُ منْ أهلِ النّارِ فإنّهُ قدْ قاتلَ اليومَ قتالاً شديداً، وقدْ ماتَ.

فقالَ النّبيُّ ﷺ: «**إلى النّارِ**».

قالَ: فكادَ بعضُ النّاسِ أنْ يرتابَ، فبينما همْ على ذلكَ إذْ قيلَ: إنّهُ لمْ يمتْ، ولكنَّ بِهِ جراحاً شديداً.

فلمّا كانَ منَ اللّيلِ لمْ يصبرْ على الجراحِ فقتلَ نفسهُ.

فأخبرَ النّبيُّ ﷺ بذلكَ فقالَ: «**الله أكبرُ، أشهدُ أنّي عبدُ الله ورسولهُ**».

ثمَّ أمرَ بلالاً، فنادى بالنّاسِ: «**إنّهُ لا يدخلُ الجنّةَ إلّا نفسٌ مسلمةٌ، وإنَّ اللهَ ليؤيّدُ هذا الدّينَ بالرّجلِ الفاجرِ**»[2].

وربما صارح بعضهم بما هم عليه من النفاق والمخادعة:

عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: «كانَ رسولُ الله ﷺ جالساً في ظلِّ حجرتِهِ، قدْ كادَ يقلصُ عنهُ.

فقالَ لأصحابِهِ: «**يجيئكمْ رجلٌ ينظرُ إليكمْ بعينِ شيطانٍ، فإذا رأيتموهُ فلا تكلّموهُ**».

فجاءَ رجلٌ أزرقُ[3].

فلمّا رآهُ النّبيُّ ﷺ دعاهُ فقالَ: «**علامَ تشتمني أنتَ وأصحابكَ؟**».

قالَ: كما أنتَ حتّى آتيكَ بهمْ!!

---

(١) اسمه قزمان، وكانَ منْ المنافقيَن. شرح النووي على صحيح مسلم [٢/ ١٢٣].

(٢) رواه البخاري [٤٢٠٤] ومسلم [١١١].

(٣) قال محمود شاكر: إذا قيل: «رجل أزرق»، فإنما يعنون زرقة العين، وكانت العرب تتشاءم بالأزرق، وتعدّه لئيمًا. تفسير الطبري [١٤ / ٣٦٣].

قالَ: فذهبَ، فجاءَ بهمْ فجعلوا يحلفونَ بالله ما قالوا، وما فعلوا، وأنزلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ...﴾ [المجادلة: ١٨] إلى آخرِ الآيةِ[١].

وكان النبيُّ ﷺ ينهى أصحابه عن إكرام المنافقين وتبجيلهم:

عنْ عبدِ الله بنِ بريدةَ عنْ أبيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا تقولوا للمنافقِ سيّدٌ، فإنّهُ إنْ يكُ سيّداً فقدْ أسخطتمْ ربّكمْ** عَزَّوَجَلَّ»[٢].

«**فقدْ أسخطتمْ ربّكمْ**»: أيْ: أغضبتموهُ؛ لأنّهُ يكون تعظيماً لهُ، وهوَ ممّنْ لا يستحقُّ التّعظيمَ.

وقيلَ: معناهُ: إنْ يكُ سيّداً لكمْ فتجبُ عليكمْ طاعته، فإذا أطعتموهُ فقدْ أسخطتمْ ربّكمْ[٣].

وقالَ ابن الأثير: «لا تقولوا للمنافقِ سيّد فإنّهُ إنْ كانَ سيّدكمْ وهوَ منافق، فحالكمْ دون حاله، والله لا يرضى لكمْ ذلكَ»[٤].

ولم يكن يسندُ إلى أحدٍ منهم شيئاً من الولاياتِ العامّة:

فالرسول ﷺ عاشرَ المنافقينَ كما عاشرَ عامّةَ المسلمين في أحكام الدنيا، ولكنه لم يأتمنْ أحداً منهم على مصالح الأمة في وظائفهم العامّة، فلم يسندْ إليهم جبايةَ الأموال، ولا الإمارةَ في الحرب، ولا القضاءَ بين الناس، ولا الإمامة في الصلاة، ولا غير ذلك من الوظائف.

والسبب في ذلك أنهم يكفرون بالله ورسوله، ويحاربون الله ورسوله والمؤمنين، يضاف إلى ذلك فقدهمُ الأمانةَ التي هي أحدُ أسس الولايات على المسلمين.

المنافقون اليوم أعظم شراً وفساداً:

عنْ أبي وائلٍ عنْ حذيفةَ بنِ اليمانِ قالَ: «**إنَّ المنافقينَ اليومَ شرٌّ منهمْ على عهدِ النّبيِّ ﷺ، كانوا يومئذٍ يسرّونَ، واليومَ يجهرونَ**»[٥].

---

(١) رواه أحمد [٣٢٦٧]، وقال ابن كثير في تفسيره [٨/ ٥٣]: «إسناده جيد»، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده.

(٢) رواه أبو داود [٤٩٧٧] وصححه الألباني.

(٣) عون المعبود [٧/ ٣٠٠٩].

(٤) النهاية [٢/ ٤١٨].

(٥) رواه البخاري [٧١١٣].

قالَ ابنُ بطّال: «إنّما كانوا شرّاً ممّنْ قبلهمْ لأنَّ الماضينَ كانوا يسرّونَ قولهمْ، فلا يتعدّى شرّهمْ إلى غيرهمْ»[١].

وقالَ ابن التّين: أرادَ أنّهمْ أظهروا منَ الشّرّ ما لمْ يظهر أولئكَ، غير أنّهمْ لمْ يصرّحوا بالكفرِ، وإنّما هوَ النّفثُ يلقونهُ بأفواههمْ، فكانوا يعرفونَ بهِ»[٢].

قال ابن حجر: «ويشهد لما قالَ ابن بطّال ما أخرجهُ البزّار[٣] منْ طريق عاصم عنْ أبي وائل «قلتُ لحذيفةَ: النّفاق اليوم شرّ أمْ على عهد رسول الله ﷺ؟

قالَ: فضربَ بيدهِ على جبهته، وقالَ: أوهُ، هوَ اليوم ظاهرٌ، إنّهمْ كانوا يستخفونَ على عهد رسول الله ﷺ».

فلم تبتلَ الأمّةُ الإسلاميّةُ قطُّ، في ماضيها، ولا حاضرها، ولا في مستقبلها بأخطرَ من النفاقِ والمنافقين، فالمنافقون أعظمُ ضرراً، وأكثرُ خطراً، وأدومُ مصيبةً على الإسلام والمسلمين من إخوانهم الكافرين؛ لأنهم من بني جلدتنا، ويتكلّمون بألسنتنا، ويرفعون شعاراتنا، ويتظاهرون بإسلامنا، وينتمون إلى جماعاتنا، وفرقنا، ومع ذلك لا يفترون ولا ييأسون من الكيدِ لنا، ويتعاونون مع أعدائنا، ويوالونهم أكثرَ من موالاة المسلمين، لهذا فقد حذّرَ الله ورسوله والمؤمنون من خطرهم، ونبّهوا على ضررهم، وأمروا بأخذِ الحيطةِ، والحذرِ منهم.

ويدلُّ على ذلك أن الحديثَ عن النفاق والمنافقين ورد في القرآن في سبع عشرةَ سورةً مدنيّةً، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كادَ القرآنُ أن يكونَ كلّه في شأنهم»[٤].

وقد خافَ الرسولُ ﷺ على أمّته من أئمّتهم، فعن عمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**إنَّ أخوفَ ما أخافُ على أمّتي كلُّ منافقٍ عليمِ اللّسانِ**»[٥].

---

(١) شرح صحيح البخارى [١٠/ ٥٧] لابن بطال.

(٢) فتح الباري [١٣/ ٧٤].

(٣) مسند البزار [٢٩٠٠]

(٤) مدارج السالكين [١/ ٣٥٨]

(٥) رواه أحمد [١٤٤] وصححه الألباني في التعليقات الحسان [٨٠].

قال المناويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**كلُّ منافقٍ عليمِ اللّسانِ**»، أي: عالمٌ للعلم، منطلقُ اللسانِ به، لكنّه جاهلُ القلبِ والعمل، فاسدُ العقيدة، مغرٍ للناس بشقاشقه، وتفحّصه، وتقعّره في الكلام»[(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن بليّة الإسلام بالمنافقين شديدة جدّاً؛ لأنهم منسوبون إليه، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كلِّ قالبٍ يظنُّ الجاهلُ أنه علمٌ وصلاحٌ، وهو غايةُ الجهل والفساد، فلله كم من معقلٍ للإسلام هدموه؟ وكم من حصنٍ له قد قلعوا أساسه وخرّبوه؟ وكم من علم له قد طمسوه؟ فلا يزال الإسلامُ، وأهله منهم في محنةٍ وبليّةٍ، ولا يزالُ يطرقه من شبههمْ سريّةٌ بعد سريّةٍ، يزعمونَ أنهم بذلك مصلحون، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]»[(٢)].

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير [١/ ٥٢].

(٢) مدارج السالكين [١/ ٣٥٥].

وسعَ الجميعَ عدالةُ الإسلامِ والكلُّ تحتَ ظواهرِ الأحكامِ
فشهادةُ التّوحيدِ عصمةُ أهلها أكرمْ بها منْ حرمةٍ وذمامِ
فاحذرْ أذيّةَ منْ علمتَ موحّداً واتركْ سبيلَ الظّنِّ والأوهامِ
وسعَ النّبيُّ بحلمهِ وأناتهِ أهلَ النّفاقِ على مدى الأيّامِ
متحمّلاً منهمْ أذاهمْ صابراً يعفو برغمِ فداحةِ الإجرامِ
لوْ كانَ عاقبَ واحداً لتلقّفتْ ولهوّلتهُ وسائلُ الإعلامِ
ولصوّروا الفردَ الوحيدَ كأنّهُ أممٌ أبيدتْ في النّهارِ الدّامي
أمّا إذا قتلَ الألوفُ وشرّدوا منّا فذلكَ تحتَ جنحِ ظلامِ
منْ جاءَ معتذراً تقبّلَ عذرهُ ومبادراً بالعفوِ دونَ ملامِ
يكلُ السّريرةَ للعليمِ بسرّهِ يجري عليهِ ظواهرَ الأحكامِ
لكنّهُ يبدي قبيحَ صفاتهمْ منْ غيرِ تعيينٍ ولا إلزامِ
كيلا يصدّقَ مكرهمْ وخداعهمْ أحدٌ، فينجو منهمُ بسلامِ
لا يمنحونَ سيادةً ومكانةً ليسوا بأهلِ الرّفعِ والإكرامِ